— ١ —

من خلال حديد الشرفة تسلل غصن اخضر تفتحت أطرافه عن زهور جميلة لونها خليط من الأبيض الناصع والأزرق المشرب بالحمرة . ليستقر فوق مقعد من قماش .

فى مواجهة المقعد . علق على الحائط قفص بداخله عصفور يقفز مزقزقا فى حبور للصبح الجديد .

من باب الشرفة أقبل فتى يمتلىء حيوية . وتفيض قسماته بالبشر جلس على المقعد ، وتطلعت عيناه الى العصفور ، وابتسم فى حب ، وهمس يحادثه .

— ايه عصفورى الحبيب . لقد آن لك أن تنطلق من قفصك الى الحياة الرحبة لتحقق ارادتك . انه عهد قطعته على نفسى أن أدعك طليقا فور انتهائى من دراستى . وها أنا قد أتممتها بنجاح . وأى نجاح . ثانى دفعتى . أى أننى ساعين معيدا . فلقد عين الثلاث الأول فى العام الماضى معيدين — وتنهد فى سعادة — نعم سأصبح معيدا وتتاح لى الفرصة لكى أدرس . وأدرس . وأتوسع ..

وشرد بصر الفتى . واستحال همسه الى صمت . وغامت عيناه بالرؤى .

فاذا به جالس الى مكتبه يبحث . وينقب . ويستخلص معارف جديدة تجعله يستعذب ما يبذل من جهد . فيستمر . ويتعمق .. حتى تكشفت له كل الطلاسم التى حيرت أساتذته فأوقفتهم أمامها متسائلين فى عجز عن مسبباتها ! .

ثم يقفز به خياله فاذا به يحمل رسالته لتناقش أمام لجنة من فطاحل العلماء الذين جلسوا منصتين له فى اعجاب ، وقد بهرهم ما يسوق من حديث . حتى ان أستاذه القديم نهض متجها اليه ، وراح يشد على يده مهنئا وهو يردد فى اعتزاز .

بقلم
فخرى فايد

— نعم التلميذ انت . رائع . رائع يا أستاذ . بل أكثر من رائع . فتتلاحق دقات قلبه ، وتغمر الفتى سعادة لاحد لها . يتوقف أمامها خياله لا يريد أن يفلتها دون أن يستخلص منها أقصى متعة . فيروح يستعيد الصورة مرة . ومرة : فاذ بالأستاذ ينهض . واذ باليد تعانق اليد . واذ بالفم يعيد .

— رائع يا أستاذ . رائع . بل أكثر من رائع .

وتنساب كلمة : أستاذ بين حناياه تدغدغها بحذر لذيذ . فغاية الأمل أن يكون أستاذا .

ولكن هل يرتضى الجمود عند حدود معينة ؟! ..

لا . أبدا . انه لن يتوقف . سيسعى دائبا الى آفاق أرحب وأسمى .

وسرعان ما يستجيب خيال الفتى : فاذا بواجهات المكتبات تزدان بكتبه . واذا به صاحب مذهب محدد ، ومدرسة معروفة . واذا بالبيئة العلمية تتخاطفه ، فتدعوه لحفلاتها ، وتقيم له الندوات . بل وتصدر عنه كتبا عديدة تحكى قصة نجاحه .

ويفيق الفتى على صوت أمه ينساب من داخل البيت مستفسرا .

ـ الن تذهب الى كليتك يا بنى لتعرف ما صار اليه أمرك . فلك أيام لا تفعل شيئا غير الجلوس الى عصفورك واطعامه

- ٢ -

كف العصفور عن تحليقه داخل القفص . وتشبثت أظافره بالحديد البارد . ودعك الفتى عيناه . وهز رأسه مرات ليفيق ثم تمتم .

ـ انى ذاهب لتوى يا أماه .

وقام من مجلسه . ووقف قبالة القفص ، ومد أصبعه من خلال القضبان محاولا أن يلمس العصفور . لكنه لم يستطع . فلقد حال الحديد بينه وما يريد ، فتنهد .

ـ عليك يا عصفورى أن تنتظر قليلا حتى اطمئن واعرف الى أين ستمضى . نعم يجب أن تنتظر أياما أخر . فمصيرك فى الواقع لم يزل مجهولا . ومن النزق أن أدعك تمضى هكذا دون استناد الى واقع مادى يطمئننى على مستقبلك حتى لا تروح تتخبط وسط متاهات لا تحدها حدود . فتمتلىء نفسك بالمرارة والأسى . فما أقسى أن نشعر باننا نضرب فى الحياة بلا هدف . فى حين تتساقط لحظات وجودنا فى رتابة كالعدم فننتهى وكاننا لم نكن ليمتصنا باطن الأرض فى قبور بلا شواهد .

وغلفت وجه الفتى سحابة حزن . ثم استدار مبتعدا

ومر الوقت ..

وبدأت الشمس تغوص مختفية فى الأفق الغربى ، فانكمش العصفور يزقزق بصوت خفيض أغنية الوداع . وانفتح باب الشرفة عن الفتى . الذى انهار فوق المقعد ، ونظر الى العصفور فى حزن ثم غطى وجهه بكفيه وراح يغمغم فى قنوط .

ـ ليس لك الا أن تموت . ليس لك الا أن تموت .

وبعد لحظات . رفع وجهه . وتطلعت المنكمش فى قاع القفص ، وقطرت كلماته عيناه وقد أشرقت بالدمع الى العصفور مرارة .

ـ لقد انتهى كل شىء .

وعاد يدفن وجهه بين كفيه : لقد انتهى كل شىء . لن يأخذوا معيدين هذا العام .

فجأة صفى ذهنه فتساءل : هل يدعو هذا لليأس ؟! .

تحرك العصفور فنفض ريشه : بحق لم اليأس ومجالات الدراسة مفتوحة ، ومجالات العمل أوسع . فلم لا ينزل الى الحياة العملية ليطبق أفكاره ويحققها ! .

ورأى الفتى نفسه فيما يرى النائم ، وقد وقف فى أحد المعامل يحلل . ويختبر . ويستنبط . وكان يرتدى معطفا ابيضا ... ابيض كسحابة صيف .

— ٣ —

جلس الفتى فى سريره يقلب صفحات الجرائد :

« مطلوب كاتب حسابات متمرن » .
« شركة تطلب مشرفا اجتماعيا » .
« مكتب كبير بحاجة لسعاة » .
« مطلوب مترجم »
« أمين مخزن » .
« مندوبين بالعمولة » ..
« فراشون » .

— أليس هناك من يحتاج الى مبتكر ؟! ..

ويقلب الفتى الصفحة ..
ثم يبدل الجريدة ..
وتتبدل الأيام ..

وتساله امه : ألم تعثر على عمل يناسبك بعد ؟ .

— جميعهم يريدون آلات . أجساد لا عقول .

— ولكن يجب أن تعمل يابنى .

— مستحيل أن أقبل مثل تلك الأعمال . والا فلم أجهدت نفسى فى الدرس والتحصيل !! .

وتشفق الأم عليه فتبتلع ما كانت تود أن تقول . تسكت لحظات ، ثم تقتنع بأن عليها أن تقول . يجب .

— يابنى أن . انه صاحب البيت . انه يطالبنا بالايجار . كذا البقال والجزار كل يريد ماله ، ومعاش أبيك الذى كنت تناله انقطع مذ تخرجك . وما آخذه انا لا يكفى كلانا . لم لا تنزل الى الطريق لتطرق الأبواب بقبضتيك ! .

— وماذا أقول . هل أصرخ مع دقاتى : فتى مجتهد للبيع ؟ .

— لا أقول لك افعل هذا يا بنى . ولكنى أرى أنك تملك العلم والشباب وكلاهما يكفل لك الوصول لما تريد .

— ٤ —

.. وينزل الفتى الى الطريق . وتحمله ساقاه الى كل مسلك . ويقابل بابتسامة مشجعة : قد تجد ما تريد عند الآخرين . ان ما تريد هو ذلك الذى اعلنا عنه بالجرائد .

ويتحرك الفتى . يذهب الى الآخرين ليقولوا له : عند الآخرين .

والحذاء نعله تمزق . والطريق الذى كانت تسقط فوقه خطواته . ليتحرك فى سهولة ، أخذ يلتهب ، ثم يتشبث لاسعا ببقايا الحذاء والجورب . وأكدت الأم .

ـ لابد لك من حذاء جديد والا استشل ساقاك .

ـ من أين ؟ .

ـ من كدك .

همس فى استسلام :

ـ نعم . من كدى . من كرامتى . من آمالى ..

ـ يا بنى اذا اردنا أن نبدأ فعلينا أن نضحى ببعض من مظاهر طموحنا .

اما اللب فعلينا الا نفرط فى ذرة منه .

ـ اذن ساذهب غدا لأتسلم ذلك العمل الحقير . لكن لن استسلم . سادرس فى فترات راحتى .

وشعر الفتى بانه يكره قدميه . والجزار . وصاحب البيت . وكل ماديات الحياة التى تدفعه لكل هذه المهانة .

ولم يجد الفتى راحته الا فى البكاء .

- ٥ -

جلس الفتى وأمامه آلة حاسبة يدق أزرارها فى رتابة ثم يضغط ببطن يده زر عريض فتتحرك الأذرع مجمعة رقما كبيرا فى اللوحة الشفافة .

أرقام ضخمة . جنيهات يستطيع ان يشترى بها مراجع ومراجع . آخر الشهر .

حينما امسك بالجنيهات التى وضعوها فى كفه تبخرت آماله . وشعر بحنق ومرارة عظيمين : يا الهى . أهكذا يكون كد الانسان بخسا فلا يكفى حتى لسداد مطالب فمه !! .

وبلا وعى راح الفتى يقلب الجنيهات بين كفيه وهو يحس بالمهانة ! .

- ٦ -

قالت الأم : يجب أن تحاول العمل أكثر من هذا يا ولدى . فالشتاء على الأبواب . وملابسك كادت تضحى أثمالا .

وتوسل الفتى حتى استطاع أن يظفر بساعات عمل اضافية تبخر أجرها فى وقفة أمام واجهة احدى المكتبات . وكان عليه أن يستمر فى عمله الجديد بعد أن اقنعته لسعات البرد بضرورة شراء حلة جديدة .

فى الليل . كان الفتى ينظر الى ما اشترى من كتب والحسرة تمزق أعماقه ، والألم يعتصر جسده المكدود ثم يرتمى فوق فراشه وقد شمله قنوط مريع .

- ٧ -

تساءلت الأم ذات صباح قبل أن يغادر البيت : لقد نسيتعصفورك يابنى فلم تعد تطعمه . ولقد كاد خزينه ينفد .

أجابها متأففا وهو يسحب الباب وراءه : ساحضر له طعامه . وان كنت أرى أنه لم يعد يهمنى . فلقد كان مصدر آلامى . ليته يموت . وتمر الأيام ..

والأم تلح . والفتى لا يجد من الوقت ما ينفقه فى ابتياع غذاء لعصفوره .

- ٨ -

سأله زميل فى العمل عن المراحل التى قطعها فى اعداد رسالته ، وعلل تساؤله بانه قرأ فى جريدة اليوم أن هناك هيئة كبيرة ستعطى منحة تفرغ للأول الذين سيتقدمون بتخطيط مدروس .

ماجت أعماق الفتى بانقباض قاتم . وخرجت كلماته لا تحمل اسمه ، جواب . مجرد صرخات يائسة :

ـ انها تدفعنى دائما من وراء . انها تصرخ فى : طعامك لا يكفى .

ملابسك لا تلائم . دائما تصرخ فى . دائما . دائما فلا اكاد أدرك الى أين أمضى

ومضت الساعات ..

وفى طريق العـــودة عرج الفتى على دكان ليشترى طعـــاما لعصفوره لكن الدكان كان مغلقا . فاتجه لبيته . ولما سالته أمه :

ـ الا تتعشى يابنى ؟ .

أجاب بانه لا يريد أن يأكل ، فلا ميل به للطعام .

- ٩ -

حينما أوشك الليل على الانتصاف . شعر الفتى بحنين جارف لرؤية عصفوره فنفض عنه الغطاء وفتح باب الشرفة . كانت الريح تعوى ، والرعـد يدوى . والبرق يضىء فى ومضـــات محمومة مرتعشة .

اقتـرب الفتى من القفص وبحلقت عيناه فلم تريا شيئا . كان الظلام قاتما . وانتفاضات البرق خامدة .

قرب وجهه من القفص حتى التصق الحديد باردا بجبهته .

ودوى صوت الرعـــد . وتالق نور البرق خاطفـــا . للحظة لمحت عيناه العصفور وقد ارتمى ميتـا على أرض القفص . وتوجعت أعماق الفتى . وود بكله لو أنه الذى مات . ودوى صوت الرعد من جديد لكن البرق لم يومض . وتسمر الفتى يرتعـــد وسط قتامـة الظلام .

- ١٠ -

من بعيـد أتاه صوت أمـه متسائلا فى قلق :

ـ لم انت مستيقظ للآن يابنى . انسيت أنه يجب عليك أن تصحو مبكرا لتستطيع اللحاق بعملك ؟! .

استدار الفتى عائدا الى حجرته وهو يرتعد . ثم رفع صوته فخرج متسلخا كانه بكاء :

ـ لا لم أنس يا أمى .

وارتمى فوق فراشه فاحس بالوحشة وزادت انتفاضـــات بدنه . فمد يده يجذب الغطاء فوقه . وشـــعر بالدفء فتمتم متنهدا :

ـ حقا يجب أن أستعد لغدى . كل ما علىّ أن أغمض عيناى وسأنام .

وانفرش اللحاف فوق الفتى فغطاه . وبدا الفراش فى الظـــلام منبعجا من الوسط كقبر بلا شاهد .